(الأدب العربي قديما وحديثا): المحاضرة الأولى

السداسي الثاني

مفهوم النثر والدراسات النقدية الأولى حوله

الهدف التعليمي: 1- مفهوم النثر لغة واصطلاحا؛ 2- الدراسات النقدية العربية الأولى حول النثر؛ 3- أنواع النثر: أ/ النثر الخطابي، ب/ الإبلاغي)؛ 4- أبرز من اشتهر في الكتابة النثرية الخطابية قديما وحديثا؛ 5- عناوين مشهورة في كل فترة.

1- مفهوم النثر في اللغة والاصطلاح:

جاء في كتاب العين للخليل: النَّثر: رَمْيُكَ الشيءَ بِيَدِكَ متفرقاً؛ وقال ابن منظور: النثر: نثرك الشيء بيدك ترمي به متفرقا. قال المتنبي: مادحا سيف الدولة الحمداني:

نثرتهم فوق الأَحْيَدِبِ نَثرَةً .. كما نُثِرَتْ فوق العَرُوسِ الدَّراهِمُ

وتعود كلمة "نثْر" في **اللغة العربية** إلى الفعل "نَثَر"، الذي يعني تفريق الشيء أو تبعثره. في معاجم اللغة، ويقال: "النثر: الكلام المرسل غير المقفى"، أي الكلام الذي لا يلتزم بقواعد الشعر مثل العروض والقافية. ويُشبه النثر باللآلئ المنثورة، حيث تكون الكلمات حرة في ترتيبها دون قيود إيقاعية صارمة. ويسمى النثر: المنثور والمرسل.

وفي **الاصطلاح**: يُعرف النثر بأنه الكلام الذي يعتمد على التعبير الطبيعي، مستخدمًا اللغة لنقل الأفكار والعواطف دون الالتزام بالبحور الشعرية. يقول ابن خلدون في "المقدمة": "النثر هو الكلام المرسل الذي لا يقصد فيه الإيقاع، وإن كان قد يحتوي على سجع أو بديع". وفي **العصر الحديث**، يُرى النثر كوسيلة للتعبير عن الواقع الاجتماعي والنفسي، كما في الرواية والقصة، حيث يصبح أداة للتحليل والنقد. وهو في المعنى العام الكلام المرسل الذي أطلق من قيود الوزن والقافية.

وهو على أنواع: **نثر عادي:** (وهو ما يقال في لغة التخاطب، وليست له أدبية، إلا ما يجرى فيه أحيانا من أمثال وحكم). **ونثر علمي:** (يقوم على العقل، ونشر الحقائق الفكرية والمعارف العلمية والفلسفية، وليس يخلو عاطفة محدودة، وخيال بسيط لغرض الشرح والتحليل، ومن أهم صفاته الوضوح؛ ومن أنواعه المقالة، والتاريخ، والسيرة، والمناظرة). **ونثر فني**: (يرتفع فيه أصحابه إلى لغة فيها فن ومهارة وبلاغة، وتغلب فيه العاطفة والخيال، وهذا الذي يُعنى النقاد ببحثه ودرسه وبيان ما مر به من أحداث وأطوار)، وهو ما يدخل في حيز الدرس النقدي والأدبي.

2- الدراسات النقدية العربية الأولى حول النثر:

جاءت أغلب مباحث مصطلح "نثر فني" في التراث النقدي العربي تدور كلها حول المفاضلة بين الشعر والنثر؛ ولم يعثر في الدراسات على تعريف مضبوط للنثر إلا مقابلا لمصطلح الشعر، والدارسون لم يصلوا إلى معان واضحة وحدود فاصلة إلا في عقدهم مقارنات بينه وبين النظم "الشعر" في أبواب المفاضلة بينهما أيهما أشرف؟ وأيهما أسبق للوجود من الآخر؟

وقد حفل الأدب العربي منذ القدم بروائع من الكلام المنثور، تتمثل في الخطب، والوصايا والحكم والأمثال، وكذلك الرسائل الديوانية والإخوانية، والقصص والمقامات (..) قال ابن رشيق في العمدة: "ما تكلمت به العرب من جيد المنثور، أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من المنظوم عشره".

وهذه نماذج من تلك الدراسات النقدية القديمة: رأى أبو حيان التوحيدي أنّ منشأ المفاضلة بين الشعر والنثر فلسفي الطابع، ولاحظ أن الذين يُفضّلون الشعر النثر أكثر من الذين يفضّلون النثر على الشعر، وعرض لآراء نقاد من الفريقين، وللحجج والبراهين التي يسوقونها، لتأكيد صحة ما يرون. وهذه مقتطفات منها:

قال أبو عابد الكرخي صالح بن علي: في **فضائل النثر**: النثر أصل الكلام، والنظم فرعه، والأصل أشرف من الفرع، والفرع أنقص من الأصل، لكن لكل واحد منهما زائنات وشائنات، فأما زائنات النثر فهي ظاهرة؛ لأن جميع الناس في أول كلامهم يقصدون النثر، وإنما يتعرضون للنظم في الثاني بداعيةٍ عارضة، وسببٍ باعث، وأمرٍ معين (..) ومن شرفه أيضًا أن الوحدة فيه أظهر، وأثرها فيه أشهر، والتكلف منه أبعد، وهو إلى الصفاء أقرب (..) وليس كذلك المنظوم؛ لأنه صناعي؛ ألا ترى أنه داخلٌ في حصار العروض وأسر الوزن وقيد التأليف، مع توقِّي الكسر، واحتمال أصناف الزِّحاف؛ لأنه لما هبطت درجته عن تلك الربوة العالية دخلته الآفة من كل ناحية (..) ومن شرف النثر أيضًا أنه مبرَّأ من التكلف، منزَّه عن الضرورة، غني عن الاعتذار والافتقار، والتقديم والتأخير، والحذف والتكرير ... إلخ، وقال عيسى الوزير: النثر من قِبل العقل، والنظم من قِبل الحس، ولدخول النظم في طي الحس دخلت إليه الآفة، وغلبت عليه الضرورة، واحتيج إلى الإغضاء عما لا يجوز مثله في الأصل الذي هو النثر.»

وفي **فضائل الشعر** يقول التوحيدي: «من فضائل النظْم أن صار صناعةً برأسها، وتكلم الناس في قوافيها، وتوسعوا في تصاريفها وأعاريضها، وتصرفوا في بحورها، واطلعوا على عجائب ما استخزن فيها من آثار الطبيعة الشريفة، وشواهد القدرة الصادقة؛ وما هكذا النثر، فإنه قَصَّرَ عن هذه الذروة الشامخة، والقُلَّةِ العالية، فصار بِذْلةً لكافة الناطقين من الخاصة والعامة والنساء والصبيان.» وقال أيضًا: «من فضائل النظم أنه لا يغنَّى ولا يُحدى إلا به (..) والغناء معروف الشرف، عجيب الأثر، عزيز القدر، ظاهر النفع في معاينة الروح، ومناغاة العقل، وتنبيه النفس، واجتلاب الطرب وتفريج الكُرب، وإثارة الهِزَّة، وإعادة العزة، وإذكار العهد، وإظهار النجدة، واكتساب السلوة، وما لا يُحصى عدُده."

نتيجة

النثر قضية أفرزتها مستجدات ثقافية شهدها العصر العباسي، فقد ولد فنّ جديد هو فن الكتابة، الذي أتقنه كُتابٌ مجيدون، ونافس النثرُ الشعر، والكاتبُ الشاعر، في ظل ظروف سياسية وفكرية، ولم يعد الشعر وحده يستوعب ضروب الجدل والحوار والتناظر، التي استجدّت حول قضايا عقليّة وصوفية وفلسفية.

إن قراءة النقد المُوجّه للشعر والنثر، تكشفُ عن كون القواعد النقدية مشتركة في دراستهما معاً؛ فقواعد البلاغة التي تنطبق على الشعر تنطبق على النثر أيضاً، ويرى قدامة بن جعفر أنّ البلاغة مفهوم ينطبق على النثر والشعر معاً .

على الرغم من الاهتمام النقدي الموجّه للنثر. ظل نقد الشعر طاغياً، كان نقد النثر موسوماً بضآلة حجمه، غير مواكب لتطور النثر العربي والذي تناسب طرداً مع تطور الفكر العربي وتجدّده، بجوانبه العقلية، وخاصة الفلسفية والدينية والأخلاقية والوجدانية .

حل النقد "القديم، والحديث إشكالية المُفاضلة بين الشعر والنثر بالتوحيد بينهما، ومساواتهما جمالياً؛ لأنهما لا يقفان على طرفي نقيض، بل يكمل أحدهما الآخر، ويقوم كل منهما بمهمته في الدرجة نفسها من الأهمية، فالفن السامي قد يكون شعراً، وقد يكون نثراً، فليس من نقطة حاسمة تحدّد نهاية الشعر وبداية النثر، أو العكس، وإذا كان ثمة خلاف بين الشعر والنثر ، فهو خلاف كمي وشكلي، وليس خلافاً جوهرياً.

3. 3. أنواع النثر: يُقسم النثر العربي إلى أنواع متعددة بناءً على الغرض والأسلوب. هناك تصنيفات تقليدية وحديثة، لكننا سنركز على الأساسيات: **النثر الفني**: يعتمد على المحسنات البديعية مثل السجع والجناس، ويشمل الرسائل والمقامات. مثال: مقامات الحريري. **النثر العلمي**: يهدف إلى نقل المعرفة بدقة، كما في الكتب الفقهية والطبية، مثل "القانون في الطب" لابن سينا. **النثر السردي**: يروي الأحداث، كما في القصص والروايات الحديثة، مثل "زينب" لمحمد حسين هيكل.

النثر الخطابي، أو الخطابة، هو نوع من النثر يهدف إلى الإقناع والتأثير على الجمهور عبر العواطف والحجج. يعود أصله إلى العصور الجاهلية، حيث كانت الخطب تُلقى في الأسواق والمجالس؛ ***خصائصه***: الاعتماد على البلاغة، مثل الاستعارات والتشبيهات، والإيقاع اللفظي دون قافية كاملة. يقسم إلى خطب سياسية (كخطب الرسول صلى الله عليه وسلم)، دينية (كخطب علي بن أبي طالب)، واجتماعية. في العصر الحديث، يظهر في الخطب السياسية والإعلامية، مع تأثير الإعلام الجديد. ***أهميته***: يعكس النثر الخطابي روح العصر، ويساهم في تشكيل الرأي العام. مثال: خطبة الوداع للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، التي تجمع بين الإرشاد والعاطفة.

النثر الإبلاغي، أو الإخباري، هو النثر الذي يهدف إلى نقل المعلومات بدقة ووضوح، دون زخارف بلاغية مفرطة. يُسمى أيضًا "النثر الخبري" أو "الإبلاغي"، مقابل "الإنشائي". ***خصائصه***:

البساطة، الدقة، والتركيز على الحقائق. يظهر في التقارير، التاريخ، والصحافة. في العصور القديمة، كان في كتب التاريخ مثل "تاريخ الطبري"، حيث يسرد الأحداث دون تزيين. حديثًا، في المقالات الصحفية والتقارير العلمية. ***الفرق مع الخطابي***: الخطابي يقنع، بينما الإبلاغي يبلغ. ومع ذلك، قد يتداخلا، كما في الخطب التي تحتوي معلومات.

4- أبرز من اشتهر في الكتابة النثرية الخطابية قديمًا وحديثًا، وعناوين مشهورة في كل فترة:

1.4. قديمًا (العصور الإسلامية المبكرة والعباسية):

1.1.4. **علي بن أبي طالب (ت. 40 هـ) :**أمير البلاغة، اشتهر بخطبه في "نهج البلاغة"، التي تجمع بين الحكمة والفصاحة. عناوين مشهورة: "الخطبة الشقشقية" (نقد الخلافة)، و"خطبة الجهاد."

2.1.4. **الجاحظ :**كاتب رسائل خطابية في "رسائله"، مثل "رسالة في الحسد"، التي تقنع بالحجج الفلسفية.

3.1.4. **ابن عبد ربه (ت. 328 هـ) :**في "العقد الفريد"، يجمع خطبًا خطابية تاريخية.

4.1.4. **الحريري (ت. 516 هـ) :**مقاماته خطابية السرد، مثل "المقامة الحلبية."

2.4. في العصور المتوسطة (المملوكية والعثمانية):

1.2.4. **ابن خلدون :**خطابي في "المقدمة"، يقنع بتحليلات اجتماعية. عنوان: "فصل في العصبية."

2.2.4. **القلقشندي (ت. 821 هـ) :**في "صبح الأعشى"، رسائل خطابية رسمية.

3.4. حديثًا (العصر الحديث والمعاصر):

1.3.4. **مصطفى لطفي المنفلوطي (ت. 1924) :**اشتهر برسالته الخطابية في "النظرات"، مثل "في سبيل التاج"، التي تنتقد الاستعمار عاطفيًا.

2.3.4. طه حسين (ت. 1973) :خطابي في مقالاته، مثل "في الشعر الجاهلي"، الذي يقنع بالمنهج العلمي. عنوان: "المستقبل العربي."

3.3.4. **عباس محمود العقاد (ت. 1964) :**في "العبقريات"، خطابي فلسفي، مثل "عبقرية محمد."

4.4.4. **نجيب محفوظ (ت. 2006) :**رواياته خطابية اجتماعية، مثل "الثلاثية" (بين القصرين، قصر الشوق، السكرية)، تقنع بنقد المجتمع.

5.4.4. **أدونيس (علي أحمد سعيد) :**مقالات خطابية في "الثابت والمتحول"، يناقش تطور الأدب.